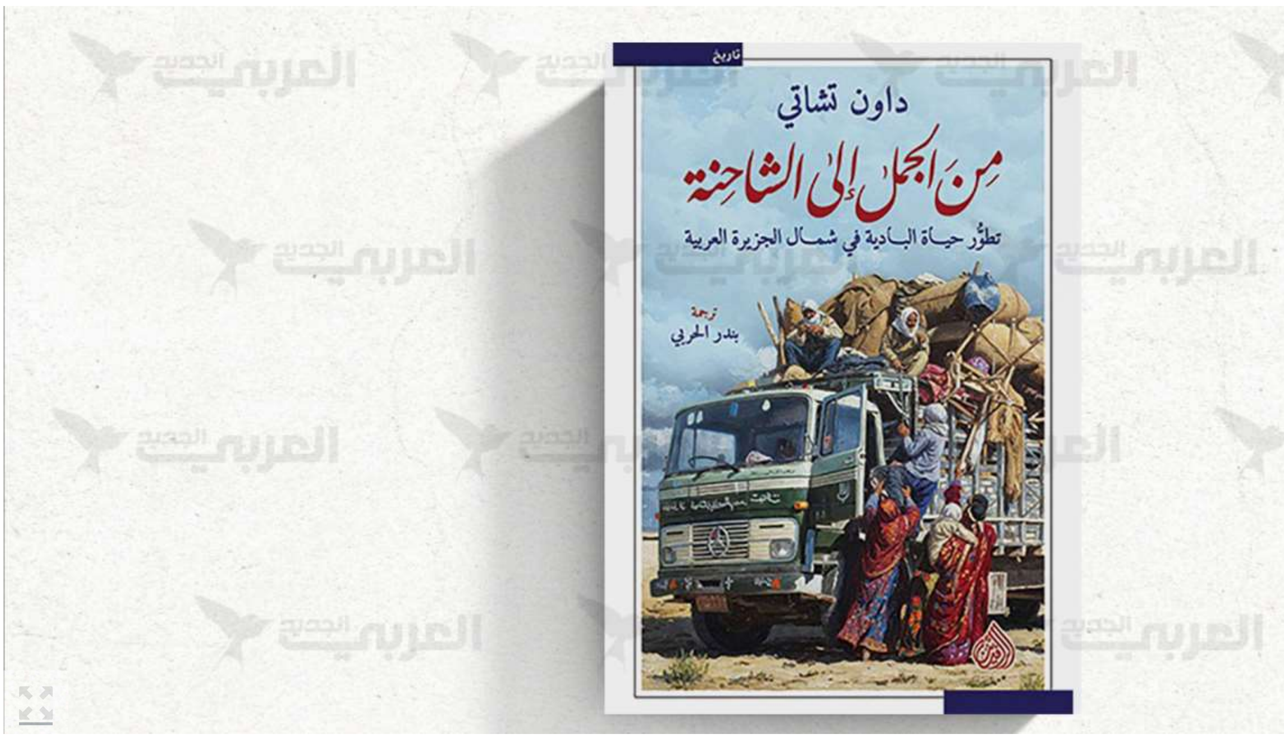
"من الجمل إلى الشاحنة".. قراءة أنثروبولوجية في تحوّلات البادية

كتب علي سفر

12 نوفمبر 2025 | آخر تحديث: 07:06 (توقيت القدس)



غلاف الكتاب (تصميم العربي الجديد)

تحاول الباحثة الأنثروبولوجية الأميركية دون تشاتي في كتابها "من الجمل إلى الشاحنة: تطور حياة البادية في شمال الجزيرة العربية" (دار الرافدين، 2025) رصد تحولات البدو في المشرق العربي خلال القرن العشرين، من دون الاستغراق في عرض صور فولكلورية أو نظرات استشراقية عنهم، بل قدمت تحليلا عميقا لكيفية تكيّفهم مع العالم الحديث دون أن يفقدوا هويتهم الثقافية. ومنذ صدوره بالإنكليزية عام 1986، وحتى صدور الطبعات التالية، ظلّ الكتاب مرجعاً أكاديمياً مركزياً في دراسة المجتمعات الرعوية، وما زال يحتفظ براهنيته في زمن التحولات المتسارعة التي تشهدها البلدان التي تحتضن المجتمعات البدوية العربية.

تنطلق تشاتي من فرضية بسيطة ومركّبة في أن البدو ليسوا بقايا ماضٍ منقرض، بل جماعات بشرية قادرة على إعادة ابتكار أساليب عيشها مع تغيّر الظروف الاقتصادية والسياسية. اعتمدت الباحثة في دراستها على مشاهدات ميدانية طويلة الأمد أجرتها في مناطق صحراوية تمتد بين شمال سورية والأردن والعراق خلال السبعينيات، فجَمعت روايات البدو وملاحظاتهم اليومية، لتعيد بناء الصورة من داخل المجتمع لا من خارجه.

تكتسب هذه المقاربة أهميتها من كونها توازن بين التوصيف الإثنوغرافي والتحليل الاجتماعي والسياسي، فتُظهر كيف تداخلت قرارات الدولة الحديثة، وشبكات السوق، والتحولات البيئية في تشكيل الحياة البدوية الجديدة.

العرض التاريخي الذي يبدأ به الكتاب يوضح أن البداوة ليست انقطاعاً عن الحضارة، بل نمط حياة متكامل نشأ استجابة لشروط بيئية واقتصادية قاسية. فالقبيلة عند الباحثة ليست وحدة نسب فحسب، بل قواعد متوارثة تحفظ التوازن بين الفرد والجماعة، ويقوم فيها الشرف والكرم وحماية الضيف مقام القانون المدني. وأقام البدو من خلال هذه البنية التضامنية عبر القرون شبكات تفاعل مستمرة مع القرى والمدن، من خلال التجارة والزواج وتبادل الخدمات، ما ينفي الصورة النمطية عن انعزالهم عن العالم.

> اعتمدت الباحثة على مشاهدات ميدانية في سورية والأردن والعراق

تحليل العلاقة المتوترة بين البدو والدولة الحديثة، بدءاً من نهاية العهد العثماني وصولاً إلى حقبة ما بعد الاستقلال أخذ حيزاً من صفحات الكتاب، إذ ترى الباحثة أن السلطة المركزية سعت إلى إخضاع القبائل عبر فرض الضرائب ونزع السلاح وتقييد حركة قطعان الماشية، في محاولة لدمجها في الاقتصاد الوطني.

غير أن هذه السياسات لم تُنتج التبعية فقط، بل أنتجت أشكالاً جديدة من التكيّف أيضاً، إذ تحوّل بعض البدو إلى وسطاء بين السلطة والمجتمع، أو إلى موظفين في الأجهزة الإدارية والعسكرية، ما خلق انقساماً داخلياً بين "بدو يتماهون مع الدولة" وبين آخرين يريدون أن يحافظوا على وجودهم في البوادي من دون الالتزام بإملاءات السلطات.

وفي سياق تحليل الأنماط التي تتماس مع بعضها في البيئات البدوية والحضرية تفكّك تشاتي الثنائية القديمة بين البدو والحضر، مبيّنة أن العلاقة بينهما تكاملية لا تضادّية. فالمجتمعان يتبادلان السلع والرموز والقيم، ويتأثر كل منهما بالآخر في اللغة واللباس والعادات.

بهذا المعنى، تُبرز الباحثة أن البدو لم يكونوا معزولين عن التمدّن، بل جزءاً من حركة المجتمع العربي الكبرى، وأن البداوة تمثّل في جوهرها شكلاً من أشكال التنظيم الاجتماعي المرن القادر على إعادة تشكيل ذاته بحسب الحاجة.

تفرد تشاتي حيزاً مهماً للحديث عن الأدوات الإنتاجية، بوصفها تعبيراً عن الأنماط الاجتماعية، ولا سيما الفرق بين البدو الذين كانوا يرعون الإبل واكتسبوا بذلك منزلة كبيرة أمام غيرهم، وبين أولئك الذين كانوا يرعون الأغنام، والذين اعتُبروا أقل مرتبة، وعليه تتوجه الباحثة إلى الجمل بوصفه العمود الفقري للحياة البدوية ورمز كرامتها. فالجمل لم يكن وسيلة نقل فحسب، بل هو معيار للثروة والمكانة الاجتماعية، ووسيلة لحفظ التقاليد عبر الرحلة والتنقّل. ويصف الكتاب تفاصيل دقيقة عن أنماط الرعي وتقسيم العمل في الخيمة والطقوس اليومية، ليبيّن أن النظام الاقتصادي للبدو قائم على منظومة ثقافية متكاملة تربط الإنسان بالأرض والحيوان والمجتمع في شبكة واحدة من المعاني والرموز.

وفي الفصل المحوري، تتناول الباحثة التحوّل من الإبل إلى الشاحنات بوصفها علامةً على دخول الحداثة إلى الصحراء، تُظهر كيف غيّرت وسائل النقل الحديثة أنماط الرعي والتجارة والرحلة، وكيف سمحت الشاحنات بالوصول إلى الأسواق البعيدة، وخلقت فرصاً جديدة للعمل المأجور، وفتحت الصحراء أمام الدولة والاقتصاد النقدي.

> يصف الكتاب تفاصيل دقيقة عن أنماط الرعي وتقسيم العمل في الخيمة

لكن الأهم من ذلك هو أن البدو لم يتخلّوا عن هويتهم مع هذا التحوّل، بل أعادوا تفسير الرموز القديمة بلغة جديدة: فالشاحنة صارت تحمل المعنى ذاته الذي كان للجمل، رمز القوة والاستقلالية والتواصل. وتبيّن تشاتي أن هذا التحوّل لا يعني نهاية البداوة، بل انتقالها إلى طور آخر أكثر مرونة وتعدّداً. وتذهب تشاتي إلى أن المجتمعات البدوية قادرة على الاندماج في العالم الحديث دون الذوبان فيه. فتوصي بأن تُبنى السياسات التنموية على احترام القيم المحلية بدل فرض نموذج مديني جاهز، لأن فقدان التوازن بين "التقليدي" و"الحديث" يقود إلى تفكّك اجتماعي وثقافي. وترى أن رواية قصة البدو ليست حنيناً إلى الماضي، بل حكاية عن حيوية الإنسان في مواجهة التحوّل، وعن قدرة الثقافات على إعادة ابتكار ذاتها كلما تغيّرت شروط العيش.

ورغم القيمة الكبيرة التي يحتفظ بها الكتاب في تفسير تحولات القرن العشرين، فإن العقدين الأخيرين شهدا تحولاً نوعياً لم تتناوله تشاتي بطبيعة الحال: الثورة الرقمية. فالعالم البدوي اليوم لم يعد يتحرك فقط عبر الشاحنات، بل عبر الهواتف الذكية وشبكات الإنترنت التي أعادت تشكيل التواصل الاجتماعي والسياسي داخل القبائل. فنداء التضامن بين العشائر (الفزعة)، الذي كان إطلاقه يحتاج إلى اجتماع شيوخ ومجلس، بات اليوم يعلن عبر منشور في "فيسبوك" أو رسالة جماعية في "واتساب"، وتنتشر بسرعة تفوق أي نداء شفهي. أي أن القبيلة انتقلت من فضاء الرمل إلى فضاء الشبكة، حافظة روح التضامن والهوية الجماعية، التي تمارسها عبر أدوات رقمية جديدة.

هذا الواقع يفتح أفقاً جديداً لقراءة الكتاب: فكما لاحظت تشاتي انتقال البدو من الإبل إلى الشاحنات، يمكننا اليوم أن نضيف حلقة ثالثة في السلسلة، من الشاحنة إلى الشاشة.

* شاعر وناقد سوري مقيم في فرنسا

آداب

"أرض البشر" لسانت إكزوبيري برسوم رياض صطوف

دلالات

[الدولة الحديثة](#) [كتب](#) [دراسات](#) [البادية السورية](#) [التكنولوجيا](#)

الأكثر مشاهدة

1 الطرابلسي يدخل بالقائمة المثالية لمواجهة الأردن... هذه تشكيلة تونس

2 اعتراض روسي صيني في مجلس الأمن على مشروع قرار أميركي بشأن غزة

3 مصر: حبس محامٍ 15 يوماً بتهم "الانضمام إلى جماعة إرهابية"

المزيد في ثقافة



مهرجان فريج الفن والتصميم.. رحلة التشكيل إلى الهامش القطري



"الحراز" تفتتح الدورة الـ25 من المهرجان الوطني للمسرح المغربي



آداب

[مؤتمر "فلسطين وأوروبا" يبدأ مؤكداً حرية الكلمة]